غراب وطفـــل (*)

[مهداة إلى أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات]

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

نَشِبَ الجَنَاحُ وَضَلَّ فِي الأَغْصَانِ ... فَإِذَا الغُرَابُ يَخُرُّ لِلأَذْقَانِ

حَيْرَانَ يَلْتَمِسُ النَّجَاةَ فَلَا يَرَى ... قَلْبًا يَرِقُّ لِذَلِكَ الحَيْرَانِ

جَهِدَ الأَسِيرُ لِكَيْ يَفُكَّ جَنَاحَهُ ... بِالخَفْقِ آوِنَةً وَبِالدَّوَرَانِ

لَمْ يُغْنِ عَنْهُ كِفَاحُهُ فَأَثَارَهَا ... شَعْوَاءَ تُسْمِعُ جَلْمَدَ الآذَانِ

وَرَأَى غُرَابٌ صِنْوَهُ فِي أَسْرِهِ ... فَمَضَى وَأَسْرَعَ لِلأَسِيرِ العَانِي

وَهَوَى يُحَاوِلُ جَذْبَهُ ... وَإِذَا بِهِ ... هُوَ وَالأَسِيرُ لَدَى الرَّدَى صِنْوَانِ

أَعْيَاهُ إِنْقَاذُ الزَّمِيلِ ، فَطَارَ فِي ... فَزَعٍ يُنَادِي شِيعَةَ الغِرْبَانِ

وَإِذَا غُرَابٌ ، ثُمَّ ثَانٍ ، خَلْفَهُ ... مِنْ قَوْمِهِ زُمَرٌ ... أَتَتْ لِثَوَانِ

وَتَجَمَّعَ الغِرْبَانُ فِي الدَّوْحِ الَّذِي ... ضَمَّ الأَسِيرَ تَجَمُّعَ الفُرْسَانِ

عَقَدَتْ عَصَائِبُهَا عَلَيْهِ مَنَاحَةً ... وَبَكَتْ لَدَيْهِ بِدَمْعِهَا الهَتَّانِ

وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَضَرَّعُ لِلْوَرَى ... أَنْ يُسْعِفُوا ذَاكَ المَهِيضَ الفَانِي

وَأَتَى بَنُو الإِنْسَانِ فَاحْتَشَدُوا عَلَى ... بَلَهٍ ... زَرَافَاتٍ بِلَا وِجْدَانِ

وَتَجَمَّعُوا شِيَعًا لِكَيْ يُهْدُوا لَهُ ... نَظَرَ الفُضُولِ ، وَلَمْحَةَ المُجَّانِ

وَإِذَا البَلَاهَةُ وَالفُضُولُ تَجَمَّعَا ... لَمْ تَلْقَ لِلأَخْلَاقِ أَيَّ مَكَانِ...

وَأَتَى الظَّلَامُ ... وَلَفَّ فِي أَحْشَائِهِ ... هَذَا الوُجُودَ ... فَمَا تَرَى عَيْنَانِ

وَاسْتَيْأَسَ الغِرْبَانُ فَانْصَرَفُوا عَلَى ... مَضَضٍ ، وَلَمْ يَنْسَوْا فَتَى الأَغْصَانِ

تَرَكُوا لَهُ بَعْضَ الرِّفَاقِ تَرُفُّهُ ... بِالحُبِّ تَحْتَ رَعَايَةِ الرَّحْمَنِ

حَتَّى يَجِيءَ الصُّبْحُ فِي أَعْطَافِهِ ... فَرَجُ الكُرُوبِ وَجَلْوَةُ الأَحْزَانِ

يَا لِلوَفَاءِ وَلِلإِخَاءِ تَرَاهُمَا ... بَلَغَا الذُّرَا فِي عَالَمِ الحَيَوَانِ ...

لَمْ تَفْرُغِ الغِرْبَانُ مِنْ أَشْجَانِهَا ... وَاللَّيْلُ مَهْدُ غَرَائِبِ الأَشْجَانِ

وَإِذَا صُرَاخٌ مِنْ وَلِيدٍ قَدْ بَدَا ... فِي الجَوِّ يَبْعَثُ كَالمِنَ التَّحْنَانِ

يَا لِلشَّقَاءِ وَلِلتَّعَاسَةِ ... جُمِّعَا : ... هُوَ ذَا «لَقِيطٌ» لُفَّ فِي أَكْفَانِ!

قَذَفَتْ بِهِ «الأُمُّ الحَنُونُ» جَرِيمَةً ... وَرَمَتْهُ فِي رُكْنٍ مِنَ الأَرْكَانِ!

وَتَسَلَّلَتْ طَيَّ الظَّلَامِ ، وَلَمْ تَخَفْ ... عِنْدَ الجَرِيمَةِ نِقْمَةَ «الدَّيَّانِ»!

وَتَحَدَّثَ الرَّاءُونَ فِيمَا أَبْصَرُوا : ... أَنَّ اللَّقِيطَ كَزَهْرَةِ البُسْتَانِ!

مَرَّتْ بِهِ أُنْثَى ، فَصَاحَتْ — بَعْدَ مَا ... جَسَّتْهُ — صَيْحَةَ رَحْمَةٍ وَحَنَانِ :

يَا لَعْنَةَ الجَبَّارِ : لُفِّي أُمَّهُ ... أَزِنًى وَقَتْلٌ يَا بَنِي الإِنْسَانِ ؟!

وَمَضَتْ تُهَرْوِلُ فِي الظَّلَامِ كَأَنَّمَا ... تَبْغِي النَّجَاةَ ، وَمَالَهَا كَفَّانِ...

وَتَجَمَّعَ السَّارُونَ حَوْلَ مِهَادِهِ ... وَالطِّفْلُ مُضْطَرِبٌ : يَدًا لِلسَّانِ

كُلٌّ يُحَوْقِلُ ، ثُمَّ يَرْكُضُ هَارِبًا ... فَكَأَنَّهُ مِنْ لَعْنَةِ الشَّيْطَانِ!

تَرَكُوهُ خَوْفَ العَارِ يَنْوِي عُودُهُ ... وَيَعِيشُ فِي جَوٍّ مِنَ الحِرْمَانِ!

وَأَتَى الصَّبَاحُ فَقَيَّضَ الرَّحْمَنُ مَنْ ... نَجَّى الغُرَابَ ، وَفَازَ بِالطَّيَرَانِ

وَمَضَى الأَسِيرُ مَعَ الرِّفَاقِ مُمَتَّعًا ... بِالعَيْشِ فِي صَفْوٍ وَفِي خِلَّانِ ...

وَمَضَى اللَّقِيطُ لِمَلْجَإٍ يَلْقَى بِهِ ... عَيْشَ الهَوَانِ عَلَى مَدَى الأَزْمَانِ

(*) انظر العدد ٤٧٢ من الرسالة

الجميل ، ولعل له مقطوعات من شعره لم نعثر عليها بعد ؛ وقد تحقق الأيام من ذلك شيئاً فنعود إلى ذكر ما تركه هذا الشاعر الفحل والكاتب البليغ والمؤرخ الثقة

قال الثعالبي ومما ينسب إليه قوله لبعض الرؤساء في التهنئة بشهر رمضان :

نلت في ذا الصيام ما ترتجيه ... ووقاك[1] الإله ما تتقيه

أنت في الناس مثل شهرك في الأ ... شهر بل مثل ليلة القدر فيه[2]

هذا وقد أورد ياقوت في معجم الأدباء أخباراً في ترجمته في نقد الشعر الذي يغني به عضد الدولة البويهي بحضرته ومجالس أنسه وصحة قائليه وناظميه وذلك ما يدل على قوته في نظم الشعر وحفظه أيضاً لمنظومات الشعراء الذين سبقوه ، فكان خير حكم للتمييز بين الغث والسمين منه ؛ هذا علاوة على قوته في النثر ، فقد اتبع أسلوباً يكاد يكون خاصاً به لم يصل إلى مجاراته فيه أهل عصره

هذا ما تيسر لي جمعه من الأخبار عن نابغة القرن الرابع الهجري العباسي في القضاء والتأليف والشعر والأدب والاجتماع عسى أن أكون قد قمت بقسط مما يستحقه هذا العلم الفرد ، وسنواصل بحول الله تعالى البحث عن غيره ممن كانت لهم المنزلة العظمى في دولتي العلم والأدب لذلك العهد العباسي الزاهر .

(بغداد) يوسف يعقوب مسكوني

---

(١) في ابن خلكان « كفاك » ج ١ ص ٦٤ ط . بولاق

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٣٢٠ وما بعدها